

القصاص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم
عليه السلام



أ. أناهير السميري

اللقاء الثالث

مدونة علم يتتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إلكن سلسلة تفارلغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عَلِمَ يُنْتَفَعُ بِهِ)

[/http://tafaregdros.blogspot.com](http://tafaregdros.blogspot.com)

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
 - ✓ هذه التفارلغ من اجتهاد الطالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
 - ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

المقدمة:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

الحمد لله رب العالمين والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

هذا هو لقاءنا الثالث في يومنا الثالث من شهرنا الفضيل أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعيننا على صيامه وقيامه كما يحبُّ هو ويرضاه وأن يبلغنا فيه التَّقْوَى، اللَّهُمَّ آمِينَ.

كنا بفضل الله قد نظرنا في الموضوع الأول من مواضع ذكر الخبر عن إبراهيم عليه السَّلَامُ، ذلك النَّبِيُّ الْكَرِيمِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، وعلمنا أنَّ أوَّلَ خبر أتى في حقِّ إبراهيم عليه السَّلَامُ هو أنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ابْتَلَاهُ بِكَلِمَاتٍ، بأوامر ونواهي وأقدار، فما كان من إبراهيم عليه السَّلَامُ إِلَّا أَنْ أْتَمَّهُنَّ، أكملهنَّ على ما يُرِضِي اللَّهَ، فرفعه الله.

الله يتلى العبد ← العبد يتم الكلمات ← الله يرفع العبد

وفي حقِّ إبراهيم كانت الرَّفْعَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} فيحصل بذلك الاقتداء، والاهتداء، والأجر، ويحصل بذلك الثناء الدائم، وها نحن نقول: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) فكان الثناء الدائم حاصلاً لإبراهيم عليه السَّلَامُ. فهذه الدَّرَجَةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ نَهَايَةُ آمَالِ الْمُتَأَمِّلِينَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى رِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَسْتَمِرَّ أَعْمَالُهُمْ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِأَنْ يَكُونُوا قَدْوَةً لِلْعَالَمِينَ، مِنْ سَارٍ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَصَلَ إِلَى رِضَا رَبِّهِ.

وعلمنا أنَّ إبراهيم عليه السَّلَامُ لَمَّا اغْتَبَطَ بِهَذَا الْمَقَامِ أَحَبَّ ذَلِكَ لِذَرِيَّتِهِ وَتَصَوَّرْنَا هَذِهِ النَّفْسِيَّةَ كَيْفَ نَقْتَدِي بِهَا؟ يريد أن يهتدي ويحبَّ لمن وراءه الهداية، لا يحسد النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ، بل يجب لنفسه الهداية ولمن بعده. حتَّى هذه النَّفْسِيَّةُ يَقْتَدِي بِهَا، وهذه من الهمم العالية والمقامات السَّامِيَّةُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ _ هَذَا الْعَبْدُ الْحَيِّزُ _ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا بِتَكْثِيفِ الْخَيْرِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَرَائِهِ.

وهذا مثل ما نسمع في حقِّ زكريَّا عليه السَّلَامُ، كان الَّذِي يَشْغَلُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَخْصٌ يَرِثُهُ فِي الْعِلْمِ، لَا يَرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ الْعِلْمُ، فَتَصَوَّرُوا يَتَعَلَّمُ الْإِنْسَانُ وَيُبْحَثُ عَمَّنْ يَحْمِلُ مِنْ وَرَائِهِ الْعِلْمَ حِرْصًا عَلَى الْعِلْمِ، وَحِرْصًا عَلَى الدَّعْوَةِ، وَحِرْصًا عَلَى سُلُوكِ النَّاسِ السُّلُوكِ الْمُسْتَقِيمِ، مَهْتَمًا بِالْخَيْرِ وَنَشْرِهِ.

فلما اغتبط بهذا المقام سأل لذريته فأخبر أنه **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** وعرفنا دلالة هذه الآية، وعرفنا أنّ غير الظالم ينال الإمامة لكن مع إتيانه الأسباب، واتفقنا أنّ هذا الموطن الذي في سورة البقرة يصف أحد محاور قصة إبراهيم والكلمات التي ابتلي بها، فيأتي الخبر عن بناء البيت.

الآيات:

نسمع الآيات ثم نبدأ بإذن الله في مناقشتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)}

بعد أن بيّن ربّ العالمين تكليف إبراهيم عليه السلام بالتكاليف التي ابتلاه بها، فما كان منه إلا أن أحسن كما أمره ربّه، شرح لنا بعد ذلك في هذا المقام الذي هو في سورة البقرة، شيئاً مما كُلف به، وإذن الله يتبيّن لنا في خلال الكلام عن الآيات لماذا ذكر هذا الشأن خاصّة في سورة البقرة؟ لكن نفهم أولاً هذا التكليف الذي حصل من ورائه التّشريف. ما هو؟

هذا التكليف هو تطهير البيت الذي هو فرع على بنائه، فلما نفق عند قوله تعالى **{وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا}** دلّت الآية على أنّ هذا البيت الحرام من فضل الله على خلقه، وارتبط هذا البيت الحرام بإبراهيم عليه السلام، فقد جعل الله للبيت صفات ذكر منها هنا أنّه: **{مَثَابَةٌ}** وأنّه: **{أَمْنًا}**.

^٢ [البقرة: ١٢٤]

^٣ [البقرة: ١٢٤-١٢٩]

صفات البيت الحرام:

ولنبداً بالصفة الأولى التي فيها دلالة على فضل البيت، وكلّ مرّة نقول فضل البيت نذكر فضل بانيه، فكان من التكليف والتشريف لإبراهيم عليه السلام الذي أحسن فيه كما أمر ربّه، أن يبني البيت ويطهره.

فمن صفات هذا البيت المميّز أنّه:

■ مثابة للناس:

{مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ} وأصل كلمة مثابة من ثَاب يُثَوَّبُ مَثَابَةً وَثَوَابًا، وكلّها تعود لمعنى الرجوع، إذا رجع يعني ثاب: رَجَعَ.

رَجَعَ سيكون لها معاني في كلّ مرّة تُستخدم فيها هذه الكلمة ثاب الماء إذا رَجَعَ إلى النهر بعد انقطاعه، وثاب إلى فلان عقله أي رَجَعَ، وتقول ثابوا أي عادوا مجتمعين. ومن هنا أتى معنى الثواب، فكأنّه يُقال: كلّ اجتهاد لك في طاعة الله رَجَعَ عليك أجره، رَجَعَ عليك أثره في الدّنيا والآخرة.

فإذا معنى ذلك أنّ من ميزة هذا البيت أنّ الناس يرجعون إليه وقد ذكر ابن عباس ومجاهد أنّه لا ينصرف عنه أحد إلا ويتمّي العودة إليه. وكما سيأتينا في قصّة البيت التي منها ما ورد في سورة إبراهيم **{فَجَعَلْنَا مِنْ النَّاسِ نَهْوً لِلنَّاسِ}** فيحجّون ويثوبون إليه، فيلقني الله عزّ وجلّ في قلوبهم تعظيمه فما يكون منهم إلا العودة مرّة بعد أخرى، ويجدون فيه منافع في دينهم ومنافع في دنياهم، فيجتمع أهل المشرق وأهل المغرب فيه، فيحصل من المعرفة ومن ضروب التّجارات والمكسب ما يعظّم به النّفع، ونفس السّفر للحجّ، ويكون فيه عمارة للطّريق وعمارة للبلدان، وتفاصيل كثيرة يعرفها من يُراقب هذا الشّأن العظيم.

وأما منافع الدّين فإنّ في البيت العظيم تجتمع مظاهر العبوديّة من الانكسار، والدّلّ، والمواظبة على ذكر الله، وعلى الصّلاة، ويحصل فيه الاعتكاف، ويحصل فيه ما لا تستطيع أن تحصره من دموع للتّائبين، وللمشتاقين، وللمستغفرين، وللدّاعين، ومن أكفّ مرفوعة لا تكاد تنزل، ومن قلوب خاشعة منكسرة، ومن ألسن ذاكرة، تاليّة، شأن عظيم لما يتأمّله الإنسان في الواقع ويمتألاً بصورة المقبلين على البيت، ويرى جدّهم، وسعيهم، ويرى صورة واضحة، وعملية للاجتهاد في طاعة الله.

لهذا البيت سرّ ولذلك هو مفضّل، سرّ ظاهر في انجذاب القلوب إليه، بل يصبح هوّى لها وجذباً للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد.

^٤ [إبراهيم: ٣٧]

فتجد النَّاسَ كما ذكر ابن القيم في أوائل زاد المعاد: (يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما زادوا له الزيارة ازدادوا له اشتياقاً،

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها** حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً

فله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ورضي المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق وهو يستلذ ذلك كله ويستطيعه) .

■ أمناً:

ثم لهذا البيت وصف آخر وهو الأمن **{وَأِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً}** بمعنى مَوْضِعٍ آمِنٍ وهو يمكن أن يُحمل على أنه خبر، ويمكن أن يُحمل على أنه أمر، فإذا نظرنا على أنه خبر على أنه بيت آمن، فالله عزَّ وجلَّ جعل أهل الحرم آمنين من القحط والجذب، مثلما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة العنكبوت: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا}**^٧ وفي القصص **{أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِبُوا إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ}**^٨ فيكون الخبر عن الأمن، يعني خبراً عن الأمن من القحط والجذب، أو يكون أمراً شرعياً وليس قدرياً. فيكون:

- القدريَّ أن هذا البيت آمنا من القحط والجذب.
- والشرعيَّ أن يجعل النَّاسَ من هذا البيت موضعاً آمناً من الغارات والقتل.

فيكون البيت محترماً بالحكم الشرعي، وهذا الأمر كان موجوداً حتى عند أهل الجاهلية، كانوا متمسكين بتحريمه فما يهيجون على أحد التجأ إليه، يعني لدرجة أنهم كانوا يسمون قريباً أهل الله تعظيماً للبيت.

وفيما يُذكر أنّ الكلب يريد أن يصيد الظبي خارج الحرم فيفترّ الظبي فيتبعه الكلب، فإذا دخل الظبي الحرم لم يتبعه الكلب. هذا فيما يُروى والله أعلم بصحته، لكن المقصود أنّ تعظيمه وأمنه قد وقع على كلّ شيء، وقد رويت أخباراً كثيرة في تحريم مكة منها ما قالها النبي صلى الله عليه وسلم **((إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا حَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ**

^٥ زاد المعاد _ ابن القيم

^٦ [البقرة: ١٢٥]

^٧ [العنكبوت: ٦٧]

^٨ [القصص: ٥٧]

تَهَارٍ) وقد عادت حرمتها كما كانت، فهنا يظهر أنّ التّهيّ شرعيٌّ **{ آمناً }** يعني آمناً شرعاً، يجب عليكم أن تأمنوها، وكلّ شيء آمن فيها: الشّجر، والحجر، والجمادات، والوحش، زادها الله تعظيماً وتشريعاً وتكريمًا.

مقام إبراهيم . عليه الصلاة والسلام .:

فإذا هنا وصفين لهذا البيت الذي بناه إبراهيم عليه السّلام، والذي في ذكره ذكّر لإبراهيم عليه السّلام، ولذلك مباشرة في الآية **{ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى }** فيكون المعنى: اذكروا البيت جعلناه مثابة للنّاس وأمناً ومصلى، فلم يُقال لنا اتّخذوا منه مصلى وإنما قال لنا **{ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى }** فأتى التّنويه بأمر الصّلاة، والتّعظيم لشأنها، فأفردت وذكرنا بمقام إبراهيم، الأب للأنبياء كافّة، وكأنّه يُقال مقامه جدير بأن يحترم ويعظّم. فنصّ على هذا بأمر ربّانيّ، فرفعته إنّما هي رفعة من الله وهذا يُناسب المقام الذي أتت فيه الآيات لأنّ الكلام عن إبراهيم عليه السّلام أتى إلزاماً لبني إسرائيل في أنّ هذا أبو الأنبياء وهذا مقامه، فلا بدّ أن تجتمعوا أنتم وغيركم ممّن آمن بالله على هذا المقام، وسيأتي في السياق بعد ذلك الأمر باستقباله وإلزام من جادل فيه.

ومقام إبراهيم عليه السّلام الذي يظهر هو الحجر الذي يصليّ الناس عنده، أو يجعلونه بينهم وبين البيت.

وهذا الحجر هو الذي قام عليه إبراهيم عليه السّلام عند بناء البيت، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلّما أتمّ ناحية انتقل إلى النّاحية الأخرى، فكأنّه طاف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلّما يفرغ من جدار ينقلها إلى النّاحية التي تليها وهكذا حتّى تمّ جدار الكعبة.

وهذا جاء في قصّة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عبّاس عند البخاري، وقد ذكر ابن كثير أنّ المقام كان مُلصقاً بجدار الكعبة قديماً، قريباً من الباب يعني على يمين الدّاخل على الباب، وكانّ الخليل عليه السّلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو يكون هذا آخر موطن انتهى في بنائه فتركه هناك، فيكون بذلك الانتهاء ولهذا أمر بالصّلاة هناك عند الفراغ من الطّواف، بمعنى انتهى الخليل البناء في هذا الموطن، وبعد أن تنتهي أنت من الطّواف صلّ وراء المقام، فناسب أن تكون صلّاتك عند الفراغ من الطّواف عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه. والأصل في ذلك أنّ النبيّ صلّى الله

^٩ من الحديث: ((عن ابني عبّاس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: إنّ الله حرم مكّة، ولمّ تجلّ لأحد قبلي ولا لأحد بعدي، وإنّما حلّت لي ساعة من نهارٍ لا يُحتلّ خلاها، ولا يُعضد شجرها، ولا يُنقّر صنيدها، ولا يُنقَط لقطتها إلاّ لِعِزِّهِ وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِيبِ: إِلَّا الْإِدْجِرَ، لِصَاغِنَا وَلِسُفْبِ بِيوتنا، فقال: إلاّ الإِدْجِرَ، فقال عِكْرَمَةُ: هلْ تُدْرِي مَا يُنْقَرُ صَنِيدُهَا؟ هُوَ أَنْ تُنْجِيَهُ مِنَ الظِّلِّ وَتَنْزِلَ مَكَانَهُ)) [صحيح البخاري _ كتاب البيوع _ باب ما قيل في الصّواع _ حديث رقم 2006]

عليه وسلّم فعل هذا، لأنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لمّا قدم مكّة طاف بالبيت سبّعًا وجعل المقام بينه وبين البيت فصلّي ركعتين.

وذكر ابن كثير أنّ الذي أخّره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن إنّما هو عمر رضي الله عنه، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة، وهذه رواية مشهورة رواها البيهقي بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: ((إنّ المقام كان في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلّم وزمن أبي بكر رضي الله عنه ملتصقا بالبيت ثمّ أخّره عمر ابن الخطاب رضي الله عنه)) أخّره في نفس الموطن بعد البيت على اليمين لكن أخّره إلى الخلف توسعة على المسلمين لكي يبقى الطواف متصلاً ويسهل على الناس الصلّاة وراء مقام إبراهيم. وهذا كلّ رفعة ومكانة لإبراهيم عليه السّلام حيث اتّخذ من مقامه مصلى يُشار إليه.

الأمر بتطهير البيت:

أتى بعد ذلك **{وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}** وهنا يأتي التّكليف، ويأتي أمر الله عزّ وجلّ **{وَعَهْدَنَا}** بمعنى أمرنا، أمرناهم بالوحي، أمرهم الله بالتّطهير **{طَهَّرَا بَيْتِي}** يعني عن كلّ رجز، سواء كان هذا الرّجز حسبيًا أو معنويًا فلا يُفعل في البيت إلّا ما يليق في الشّرع ومن أعظم ممّا لا يليق في الشّرع: الشّرك، وهو من أهمّ ما يُطهّر عنه البيت الشّرك وما في منزلته من الكفر والمعاصي، يعني الذي في منزلة الشّرك بالطّبع الكفر والتّفاق الأكبر، والمعاصي من بعدها وكلّ مظاهر الشّرك لا بدّ أن يكون هناك جهد في تطهير البيت منها وكلّ على حسب قدرته وطاقته، وكلّ على حسب مكانه وسلطته، لكن لا يُترك هذا البيت لا يُأمر فيه بالمعروف ويُنهى عن المنكر، لكن لا يُترك هذا البيت إلّا وأهله مجتهدين في إصلاح الشّأن في الإيمان والتّطهير له من الآثام، فهذا الأمر قد بدأ به إبراهيم وإسماعيل دلالة على أنّه شأن عظيم.

إنّ البيت موضع للصلّاة فلا بدّ من تطهيره من الأنجاس والأقذار، وموضع للعبادة والإخلاص لله تعالى، فوجب تطهيره من الشّرك وعبادة غير الله.

إذاً كان مناسبًا جدًّا أن تأتي هذه الآية في ختامها الأمر بالتّطهير، لأنّ البيت جعله الله مثابة للنّاس، وأمّنًا، ومصلى، فإذا كان بهذه الحالة معنى ذلك أن النّاس سيجتمعون فيه فلا بدّ من تطهيره من كلّ أمر لا يليق بالبيت. ومادام البيت مصلى يجب تطهيره من الأنجاس والأقذار ومادام هو مصلى يجب تطهيره من الشّرك ويعبدون الله فيه ويكونون مخلصين فيه، فيكون تطهير البيت من مبدأ المسألة أن ينياه ويطهّراه من الشّرك، ويكون بيتًا أساسه التّقوى.

والأمر الثاني أن يكون الناس القادمين لهذا البيت مأمورين بأن يكونوا طاهرين من الشرك، طاهرين من المعاصي والتجسس، وأن يُطَهَّر استعدادًا لهم، يطَهَّر من أهل الكفر، من أهل الرِّيب ومن دعاة الباطل، فإذا نظر النَّاس إلى البيت خاليًا من الأوثان ومن الشرك ومن المعاصي، اقتدى النَّاس بكما في ذلك، وهذا أحد الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم في أن يجعل هذا البيت طاهرًا فهو بيت الله الذي لا يصحَّ فيه إلا الإخلاص، ولا يكون فيه إلا عبادة الله فـ **{طَهْرًا بِنَيْي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرَّكْعِ السُّجُودِ}** وسيأتينا أنَّ إبراهيم عليه السَّلام بنى البيت، ويأتينا أيضًا أنه نادى كما في المواطن الأخرى.

لكن هنا الخبر عن شريف مكانته في أنه كان القدوة في تطهير البيت، ويكون هذا التطهير **{لِلطَّائِفِينَ}** فهذا تعظيم للطَّواف في البيت وغالبًا ما يكون الطَّواف للزَّائرين من غربة، **{وَالْعَاكِفِينَ}** بمعنى المقيمين فيه، أو من أتى من الأنصار فأقام عنده وهو الذي نسَّميه الآن المجاورة يعني يجاور البيت فيبقى زمنا فهو من العاكفين.

{وَالرَّكْعِ السُّجُودِ} فكلَّ مصلي هو من الرَّكْعِ السُّجُودِ، فمعنى هذا أن كلَّ من أتى هذا البيت مُريدا لتعظيمه ولطاعة الله فيه لا بدَّ من خدمته لأنَّ إبراهيم عليه السَّلام قيل له هو وابنه إسماعيل **{طَهْرًا بِنَيْي}** هؤلاء **{لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرَّكْعِ السُّجُودِ}** فيكون خدمتهم والقيام عليهم مادام أنَّهم أتوا لطاعة الله اقتداءً بإبراهيم عليه السَّلام وامتنالًا لأمر الله لما أمر بهذا الأمر لإبراهيم عليه السَّلام.

كم الله من فضل أن جعلنا على هذه الملة، والنَّاس ينظرون إلى أصحاب الشرك والباطل كيف أنَّهم يخدمون أهل الباطل؟ وكيف أنَّهم يعينونهم على باطلهم؟ فكلَّ تنظيم وترتيب يحصل في الحرمين إمَّا هو نوع من أنواع التطهير من أجل أن تحصل العمارة، فإنَّ أهل عمارة المسجد الحرام هم الذين يطهِّرونه من أعظم المصائب وهو الشرك والكفر وما في منزلته وما بعدها من التَّجاسات والقدارات، وهذا كلُّه لأصناف المتعبدين في البيت، سواء كانوا الطَّائِفِينَ أو الرَّكْعِينَ أو السَّاجِدِينَ.

لكن الإشكال أنَّ النَّاس بدل أن يتبعوا سنَّة إبراهيم عليه السَّلام في أن يخدموا أهل البيت، ويُتَّصَد بأهل البيت: أوليائه المصلين، الصَّائمين، العاكفين، الطَّائِفِينَ، التَّالِينَ، أصبحوا هم من يُحْتَّاجُ إلى خدمتهم! فتجد أنَّهم لا يخدمون الحجاج ولا يعينون على خدمة الحجاج، بل يقعون فيما يؤدي الحجاج والعُمَّار، فالله المستعان على التَّفريط الذي يقع ممَّن هو من أهل البيت وكان المفروض أن يكون مُقتديًا بإبراهيم عليه السَّلام، مُؤتمِّرًا بما أمر الله عزَّ وجلَّ به إبراهيم.

على كلِّ حال بعد هذه المنقبة العظيمة والأمر العظيم بتطهير البيت، الخبر عن مكانة البيت وأمر إبراهيم عليه السَّلام بالتطهير، عُطِفَ على ذلك منقبة لإبراهيم عليه السَّلام، ودلالة على مكانته، وكأنَّه هذا من تفاصيل الابتلاء ومن تفاصيل أفعاله في هذا الابتلاء، ابتلي ببناء البيت كما سيأتينا فأحسن في البناء، وابتلي بتطهير البيت فأحسن التطهير.

○ دعاء إبراهيم . عليه الصلاة والسلام .:

بل إنّه من منقبتّه أنّه دعا لهذا البيت الذي أمره ربّه بتطهيره، وقد علم أنّ ربّه يحبّ هذا المكان فطهره وبذل جهده في ذلك ودعا فاستجاب الله دعائه. وكان دعاءه تفضيلاً لهذا البيت وسؤالاً لله عزّ وجلّ أن يتفضّل على ساكنيه بالتعمّ فقال الله عزّ وجلّ: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}** يعني واذكر هذه الحال لإبراهيم عليه السلام، وهي حال تدلّ تميمه للابتلاء والاختبار، فهو الداعي لأهل هذه الديار، السائل لهم ما تعمّر به الديار، والذي يظهر أنّه دعا بعد أن بُني البيت إكراماً لأهل هذه الديار، وإكراماً للبيت، وإكراماً لمن يعيش حول البيت، فقال إبراهيم عليه السلام: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}**، **{هَذَا}** يعني الموضع الذي جعلت فيه بيتك وأمرتي أن أسكن فيه من ذريّتي، اجعله آمناً بحيث أنّه يأمن من يحلّ به ويأمن من الخوف فلا يُرعب أهله، وقد أجاب الله دعوته فقال: **{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** وقد مرّ معنا مسألة الأمان بشقيها.

وردت أحاديث كثيرة تُشرّع الأمان في البيت:

○ في صحيح مسلم: ((عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ))

٣

فهو آمن من الآفات وآمن من أن يأتي جبار فيهدمه، فلم يصل إليه جبار إلاّ قصمه الله كما فعل الله بأصحاب الفيل.

وسياتينا إن شاء الله دعاءه في سورة إبراهيم لما قال: **{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ}** فهنا سأل أن يكون هذا الوادي الذي بنى فيه البيت بلداً آمناً، والأمن من حاجات الإنسان، وهذا يدلنا على فقه إبراهيم فإنّه سأل لساكني البيت أهمّ شيء تتمّ بهما الحياة وترتيبهما ترتيباً أولياً، فالأمن يسبق المطعم والمشرب كما هو معلوم ثمّ إذا حصل المأوى وكان المأوى في مكّة شرفها الله **{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ}** وخاصة أنّ مكّة لم يكن بها زرع ولا ثمر، وإلى اليوم مكّة لا زرع فيها ولا ثمر، فاستجاب الله تعالى له وصارت تُجني إليها الثمرات من كلّ مكان.

^١ [البقرة: ١٢٦]

^١ [آل عمران: ٩٧]

^١ معن الحديث: ((عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ)) [صحيح مسلم - كتاب الحج - باب التَّهْيِ عَنْ حَتْل]

السِّلَاحَ بِمَكَّةَ بِلا حَاجَةٍ - حديث رقم 2506

^١ [إبراهيم: ٣٧]

^١ [البقرة: ١٢٦]

ثم إن إبراهيم سأل ربه أن يرزق المؤمنين من أهلها خاصة، وهذا من إبراهيم إظهاراً لشرف الإيمان، ورفعة لشرف أهله، ومن أجل أن يراعي حسن الأدب في المسألة فإنه فيما مضى سأل لذريته الإمامة فنبهه أنه **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** فالآن من حسن أدبه في المسألة وانتفاعاً من تأديب الله سأل ربه أن يرزق الثمرات من آمن منهم، فمن الطبيعي أنه يُخصّص المؤمنين في الدعاء وكأنه في هذا ترغيب لقومه في الإيمان، لكن الله بين له وأن من آثار رحمته أن يرزق جميع من في الأرض، أن يؤمنهم وأن يرزقهم، لكن فرق بين هؤلاء وهؤلاء قال: **{وَمَنْ كَفَرَ}** أيضاً أو آمنه وأرزقه لكن قال فيه **{فَأَمْتَعُهُ}** فرزقه عبّر عنه بالمتاع، يعني كأنه يقال الرّاد القليل والبلغة، فكأنه تقليل لهذه العطية وتخسيس لها، فقليل في حقه **{فَأَمْتَعُهُ قَلِيلاً}** فقلت إما لأن يكون التمتع نفسه قليلاً، وإما مهما كثر التمتع يكون زمناً قليلاً.

{ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ} يعني نُلجّؤه إليها **{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ}** فبئس هذا المصير وبئس عذابهم، فالمقصد أن إبراهيم عليه السلام ابتلي ببناء البيت، وابتلي بتطهيره، فما كان منه إلا أن كان مطهراً للبيت، داعياً لأهله، محباً له، وبأيتنا بإذن الله تفاصيل هذا الشأن وما كان من إبراهيم عليه السلام في البيت، وسيأتينا بأمر الله التذكير ببناء البيت وحالهم، وكيف أهما يسألان الله أن يتقبل منهم.

وقد ورد في صحيح البخاري: عن ابن عباس في حديث محيي إبراهيم ليتفقد إسماعيل عليهما السلام، ثم قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر، قال: فأصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبنّي ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** قال: فجعلاً يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: **{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** ^{٢٠}

يأتينا إن شاء الله في لقائنا غدًا هذا الخبر العظيم، وهو خبر رفع القواعد من البيت، وكيف كان حالهما في ذلك.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

^١ [البقرة: ١٢٤]

^١ [البقرة: ١٢٦]

^١ [البقرة: ١٢٦]

^١ [القمر: ٤٨]

^٢ [صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - حديث رقم 3210]